

الذي يلعبه الدين في مرحلة التحرر الوطني، وقامت الحركة القسامية، التي لم تُدرس من هذا الجانب^(٣٢)، بتقديم نموذج منه، على غاية من الأهمية، باعتبارها ميداناً لمثل هذا البحث. منذ البداية، يمكن ملاحظة أن النضال الدعائي الذي مارسه القسام، توجه نحو تصفية الحساب مع نوعين من الخصوم، في إطار الفكر الإسلامي، الخصم الأول وهو الاتجاه المتمثل بسلسلة العلماء التقليديين: وهم المعبرون عن المؤسسة التقليدية الدينية؛ أما الخصم الآخر، فهو الاتجاه الذي تعطله التيارات الصوفية، وبعض الجماعات الدينية الأخرى، التي ارتبطت ممارستها الدينية بالشعوذات والخرافات التي كانت تجد صدى عميقاً لها في الريف الفلسطيني.

إن خوض هذا النضال المزدوج: على الصعيد الأيديولوجي، كان يستهدف الحد من تأثير نوعين من النفوذ: وهما، على الرغم من تعارضهما الظاهري، كانا يتبادلان التأثير سلباً في المشروع الذي يطرحه الشيخ، نتيجة السطوة التي يمتلكانها في البنية الاجتماعية الفلسطينية. لقد كانت المجابهة الأيديولوجية مع المؤسسة الدينية التقليدية، تهدف إلى الحد من تأثير نمط من الأدلجة الدينية: ذلك الذي كان يصر دور الدين على مجرد شكل من الوعظ والارشاد، فتنحول معه العقيدة الإسلامية إلى مجموعة من الأحاديث والنصوص الفقهية، والتي غالباً ما ظلت محصورة في إطار إثارة مسائل لها طابع فقهي وتشريعي تتناول شؤون العبادة، ولا تتجاوزها إلى طرح المشكلات الحياتية والسياسية.

أما المجابهة الأخرى مع أصحاب الطرق الصوفية، والجموعات الأخرى، فكانت تهدف إلى تحرير العقيدة الإسلامية من أشكال الشوائب والخرافات التي كانت هذه الممارسات تضعها على الدين، والتي كانت مستفحلة في المناطق الريفية الفلسطينية، حيث تغذي النزعة الانتكالية والسلبية والهروب من مواجهة الواقع الذي يتمثل بالخطر الصهيوني والاحتلال الأجنبي.

إن الشكل الذي اتخذته هذه المجابهة، على صعيد الدعوة، يمكن أن يحدد أماننا البناء الفكري والثقافي الذي انطوت عليه الممارسة الأيديولوجية للقسام. وهو ما يمكن أن نجد تلخيصه عبر نقطتين:

الأولى، رفض شكل من الأدلجة الدينية ينظر إلى العقيدة الإسلامية على أنها مجموعة من النصوص والأحاديث الفقهية: كما يتبدى في الوعظ الرسمي السائد. ويؤسس هذا الرفض لنزعة تتجه إلى التشديد على ما هو ديني، مع كل ما يترافق مع هذه النزعة من إعادة تأويل للعقيدة الإسلامية تحت تأثير عوامل وظروف سياسية واجتماعية.

الثانية، الاستمرار في السير بالخط الإصلاحى للحركة السلفية في محاربة أشكال البدع والخرافات التي شوهت العقيدة الإسلامية، بالتشديد على رفض النزعة الانتكالية والسلبية، وذلك من أجل إعادة الاعتبار إلى العقيدة الإسلامية، بوصفها عقيدة نضالية تشجع على روح العمل والمبادرة، وترفض الانهزامية والسلبية.

وهكذا يمكن القول، أن النضال الأيديولوجي الذي خاضه القسام كان يتم وفق الحاجة إلى بناء عقيدة مناضلة، وهو ما يتأكد في خطابات القسام عبر تشديده على استلزام السيرة الأولى للإسلام: أي ذلك الجزء من تاريخ الدعوة الإسلامية، الذي يبرز فيه، أكثر من غيره، الجانب الكفاحي للعقيدة الإسلامية، باعتبارها أيديولوجياً ثورية تسعى إلى التغيير.